بسم الله الرحمن الرحيم

ملامح من الحياة الاجتماعية في المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

د. رياض هاشم النعيمي (*)

تمهيد

لقد أغنى العديد من الدراسات والبحوث التي قدمها السادة الدارسون والباحثون جانباً مهماً من جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية لمجتمع المدينة خلال عصر الرسالة، غير أن الدراسات التي اهتمت بالحياة الاجتماعية لمجتمع المدينة في عصر الرسالة قليلة مما افقد هذه الفترة جانباً "مهماً " من جوانبها الأساسية.

وتأتي هذه الدراسة محاولة متواضعة من الباحث، لتضيف إلى ما قدمه الذين سبقوه في هذا المجال إضافة جديدة عن حياة المسلمين الاجتماعية في المدينة، وما يتصل بهذه الحياة من مستوى المعيشة، وتطورها خلال هذه الفترة، ومكانة الفقراء المسلمين داخل هذا المجتمع وعلاقتهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وعلاقة المسلمين بهم ثم تحاول هذه الدراسة بيان دور الموالي والعبيد والخدم وأهميتهم في الحياة الاجتماعية للمسلمين وطبيعة العلاقة بهم.

على الرغم من أهمية هذا الجانب في التعرف على حياة المجتمع

(*) أستاذ السيرة النبوية المساعد / مركز دراسات الموصل ١٩٩٨.

وخصوصياته، فان مصادرنا التاريخية وخصوصا تلك التي اهتمت بتاريخ صدر الإسلام، لا تفرد في حديثها بابا عن الحياة الاجتماعية للمسلمين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، مما يشكل صعوبة لآي باحث يعمل على تغطية هذا الجانب من حياة المسلمين خلال هذه الفترة وما يتعلق بها. غير أن كتب التراجم والطبقات،مثل الإصابة لابن حجر، والطبقات لابن سعد، وأسد الغابة لابن الأثير في المقام الأول، قد أغنت جانبا كبيراً من الحياة الاجتماعية للمسلمين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي تتحدث عن التراجم الشخصية للصحابة، ومن خلال التراجم، ثم الحصول على مقتطفات الأحوال المعاشية وتطورها وعن أوضاعهم الأسرية وأنماط حياتهم لتصبح هذه المقتطفات مادة علمية استخدمت لتغطية مادة البحث.

نأمل من الله تعالى أن نكون موفقين في عرض صورة صادقة لحياة المسلمين الاجتماعية في المدينة وعلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، لتكون لنا منبراً ومنهاجاً نستضئ به.

مستوى المعيشة للمسلمين في المدينة خلال عصر الرسالة

من المعروف لدينا أن مستوى المعيشة للمسلمين في المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان بسيطاً جداً، وكانت حياة المسلمين تفتقر في معظم الأحيان أهم ضرورات الحياة اللازمة حينذاك، وهذا راجع في دوره إلى عدة أسباب منها: أحوال مدينة يثرب قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها، إذ كانت تعيش في حالة حرب داخلية، مما افقدها الأمن والاستقرار، ولما كانت حياة أهل يثرب تقوم على الزراعة وما تنتجه الأرض من خيرات، يتطلب رعاية مستمرة للأرض، وهذا لا يتحقق إلا بتوفر الأمن والاستقرار وذلك ما

كانت تفتقد إليه بسبب حالة الخوف والهلع من التأثر والقتل وتدمير الممتلكات فقد أدى كل ذلك إلى أن تفقد المدينة جزءاً كبيراً من مواردها الاقتصادية، التي كانت تقايض بها من اجل تلبية حاجات أبنائها في المأكل والملبس وما شابه ذلك، فأثر سلباً على حياة أهل المدينة عموما في هذه المرحلة حتى أصبحت حياتهم سيئة جداً ثم هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهاجر معه العديد من المهاجرين من قريش وغيرهم من الذين تركوا أموالهم وممتلكاتهم في مكة التي استولى عليها كفار قريش وتصرفوا بها، فأصبح غالبية المهاجرين فقراء، مما أدى إلى تردي أوضاعهم على نحو سيئ ليكون ذلك واحداً من العوامل التي دعت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إعلان المؤاخاة في المدينة بين المهاجرين والأنصار فضلا من عوامل أخرى[1].

وبعد استقرار الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة كان عليه أن يواجه عدة مشاكل داخلية، من أهمها إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع هذه المدينة التي افتقدته ردحاً من الزمن، وليس أدل على حالة التدهور التي كانت تعانيه يثرب مما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار يوم خطب بهم في حنين: ((يا معشر الأنصار إني آتيكم لا تركبون فرساً ولا تخرجون من المدينة إلا بخفير))[2]، فكان عليه تنظيم أحوالها السياسية والأمنية، ثم التوجه بعد ذلك إلى

---

(١) انظر بشأن هذا الموضوع النعيمي، رياض. دور الأنصار، رسالة ماجستير منشورة، كلية الآداب / موصل، ١٩٨٦-١٠٦ وما بعدها.

(٢) ابن طرخان، أبو المعتمر سليمان التيمي، السيرة الصحيحة: تحقيق: فون كريمر(منشور ضمن كتاب المغازي الواقدي، ط١، كلكتا، ١٨٥٦، ٤٢١ -٤٢٢، الواقدي ، أبوعبد الله محمد بن عمر. المغازي، تحقيق: مارسدن جوش، د / ط، بيروت، د / ن، ٤ / ١٤٨.

محاربة قريش وتأديب القبائل العربية حول المدينة[٣]، حتى يتسنى له الاهتمام بأحوال المدينة الداخلية عن طريق الاهتمام بالزراعة مصدر دخلها الأول[٤].وهذا لا يتم في يسر وسهولة، بل يتطلب اشهراً وسنين لان الزراعة ليست كالتجارة، إن كل هذا جعل حياة معظم الأنصار ((من الاوس والخزرج))، ثم المهاجرين في هذه المرحلة صعبة جداً حتى لم يعد في الإمكان تلبية كل حاجاتهم الأساسية بيسر وسهولة ويحدثنا ابن حجر عن أحد الصحابة وقد توجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقول: يا رسول الله ((إن التمر قد احرق بطوننا، فصعد الرسول صلى الله عليه وسلم المنبر فخطب قائلا: لو وجدت خبزاً ولحما لأطعمتكموه))[٥]، وللدلالة على حالة الفقر الذي كانت تعاني منه المدينة في هذه المرحلة ما ذكره الإمام مالك: إن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فوجد أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فسألهما عن سبب خروجهما في غير وقت الصلاة، فقالا أخرجنا الجوع، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم وأنا أخرجني الجوع، فذهبوا إلى أبي الهيثم بن التيهان، فأمر لهم بشعير عنده يعمل وقام يذبح لهم شاة[٦].

والملاحظ أن حياة المهاجرين في المدينة في هذه المرحلة كانت في شظف

---

(٣) النعيمي، رياض، المرجع السابق، ٥٩ _ ٦٥.

(٤) النعيمي ، رياض، النشاط الزراعي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مقبول للنشر في مجلة كلية الآداب، موصل، ١٩٩٣. ١٥-١٦.

(٥) ابن حجر ، ابو الفضل شهاب الدين احمد، الاصابة في تميز الصحابة، ط١، ج١-٤ ، القاهرة ، (اعادة طبعة بالاوفيس دار صادر بيروت) ٢ / ٢٣١.

(٦) مالك، بن انس، الامام، الموطأ، صححه محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، ١٣٧٠هـ، ٢ / ٩٣٢.

من العيش اكثر من إخوانهم الأنصار الذين كانوا عونا لهم ولرسولهم[٧] وبلغ من تفانيهم من اجل مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم، أن أحدهم لقي الرسول صلى الله عليه وسلم فرى في وجهه اثر الجوع، فخرج إلى داره يلتمس طعاماً للرسول صلى الله عليه وسلم فلم يجد فخرج إلى بني قريضة فاجر نفسه على كل دلو ينزعه بتمرة حتى جمع عدة تمرات وجاءها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فوضعها بين يديه.

ويبدو أن تردي الأحوال المعيشية لعموم المسلمين في المدينة كان كبيراً على نحو عام فعندما خرجوا يوم بدر لملاقاة كفار قريش لم يستطيعوا أن يؤمنوا لأنفسهم اكثر من سبعين بعيراً وفرسين[٨] وكانوا يزيدون قليلاً على ثلاثمائة رجل[٩]. وبدا ذلك جليا في غزوة الخندق، فقد كان المهاجرين والأنصار في أثناء حفر الخندق والعمل به يشدون الحجارة على بطونهم من الجوع والبرد[١٠]، قد لا يكون الجوع، بسبب نقص المواد الغذائية بقدر ما هو رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم في تقنين هذه المواد بسبب ظروف الحصار، على الرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أمر المسلمين بجني المحصول قبل شهر من قدوم الأحزاب[١١]، وإنها كانت سنة جدبة[١٢] واستمرت أحوال المسلمين المعيشية سيئة، وحتى في أثناء غزوة خيبر كانت الأحوال لا تزال سيئة حتى

---

(٧) انظر ابن حجر، المصدر السابق،٣ / ٤٠.

(٨) انظر الواقدي، المصدر السابق، ٢٣- ٢٦.

(٩) انظر الواقدي، المكان نفسه.

(١٠) ابن كثير، ابو الفداء عماد الدين إسماعيل، البداية والنهاية، ط١، القاهرة، ١٩٣٢، ٢ / ٤ / ٩٩-١٠٠.

(١١) الواقدي، المصدر السابق، ١ / ٤٤٤.

(١٢) الواقدي، المكان نفسه.

تساهل المسلمون في أكل لحوم الحمر الإنسية، لينـهاهم الرسـول صلـى الله عليـه وسلم عن ذلك وأمر بالقدور وهي تفور فكفؤوها على وجوهها[١٣].

ويبدو أن الأحوال المناخية لمدينة يثرب قد لعبت دوراً مباشراً فـي حـالات التذبذب المستمرة في إنتاج المدينة بين العسرة والجـدب ممـا جعل إنتاجـها غـير مستقر وعلى وتيرة واحدة، في الوقت الذي يعتمد فيه أهل المدينة على مـا تنتجـه أرضها وما تنتجه صحرائها من كلأ وشجر اعتماداً مباشراً.

وللتدليل على مقدار تأثر حياة العامة والخاصة بتقلبات المنـاخ فـي المدينـة نذكر ، إن غزوة تبوك التي حصلت في العام التاسع للهجرة والتـي أمـر الرسـول صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ فيها لغزو بـلاد الـروم وذلـك فـي زمـن عسـرة علـى الناس وشدة الحر وجدب من البلاء وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم[١٤]، يدل على أن أهل المدينة كانوا قبل ذلك في حالة من العسـر والشدة.

غير أن الجهود التي بذلها الرسول صلى الله عليه وسلم فـي تنظيـم أحـوال المدينة الزراعية والاقتصادية، قد اتت ثمارها، وما غنمتـه مـن يـهود خيـبر ومـا حصل عليه من أموال وغنائم في تبوك[١٥]، فضلا عما حصـل عليـة مـن أمـوال الجزية من المدن التي فتحها والتي صالح أهلها الرسول صلى الله عليه وسلم مثل نمار[١٦]قد ساعد على توفير أموال كثيرة بيد الرسول صلى الله عليـه وسلم. ممـا

---

(١٣) ابن هشام، المصدر السابق، ٣ / ٣٨١.

(١٤) ابن هشام، المصدر نفسه، ٤ / ١٦٩- ١٧٠

(١٥) انظر الواقدي، المصدر السابق، ٣ / ٩٨٩ _ ١٠٢٢، ابن هشام، المصدر السابق، ٤/ ١٧٣ _ ١٧٩.

(١٦) البلاذري، احمد بن يحيى، فتوح البلدان، صححه: صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦، ١ / ٢٨ _ ٣٢، ٧١ _ ٧٢، ٨٦ _ ٩٥.

مكنه من التخفيف عن كاهل المسلمين ثم رفع لمستواهم المعاشي في المدينة، وبدا ذلك واضحاً بعد فتح مكة, وانتصار المسلمين في حنين[١٧] وقدوم الوفود إلى المدينة معلنة الدخول في طاعة الدولة العربية الإسلامية في الجزيرة مقدمة لعشور من أموالها[١٨].

ومن اجل رفع المستوى المعاشي للمسلمين في المدينة، خصص الرسول صلى الله عليه وسلم لهم جرايات معلومة قوامها، التمر والشعير بعد عودته من غزوة خيبر سنة ٧هـ[١٩] وأصبحت هذه الجرايات فيما بعد نقدية من أموال لجزية التي كانت ترد المدينة سنوياً فضلا عن الجرايات العينية[٢٠].

وكانت أموال الجزية مورداً مهما للدولة مكنت الرسول صلى الله عليه وسلم من الأنفاق على المسلمين وتلبية حاجات الدولة السياسية والاقتصادية وكان على رأس هذه الأموال أموال الجزية من أهل خيبر، وأهل تبالة وجرش، وأهل ايلة، اذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرض على كل مسلم منهم ديناراً، في السنة كما صالح أهل اذرع على مائة دينار في كل سنه تدفع في رجب[٢١] كما فرض الربع على عروكهم وربعاً على كراعهم وحلقتهم [٢٢]. وربعاً على

---

(١٧) ابن حجر، المصدر السابق، ١ / ٣٦٤.

(١٨) ابن حجر، المصدر السابق، ٢ / ٦٠٨.

(١٩) تنظر البلاذري، المصدر السابق، ١ / ٢٨، وكذلك ابن حجر، المصدر السابق، ٣ / ٣٩ _ ٣٩٧ _ ٤٥٧.

(٢٠) البلاذري، المكان نفسه.

(٢١) تنظر البلاذري، المصدر السابق، ١ / ٧١ _ ٧٢.

(٢٢) العروك خشب يصطاد عليه والكراع الخيل ونحوها للمزيد انظر (الزمخشري ابو القاسم محمود بن عمر، اساس البلاغة، د / ط، بيروت، ١٣٨٥ هـ) ٥٤١، والحلقة اسم للسلاح، انظر الزمخشري المصدر نفسه، ١٣٩.

ثمارهم [٢٣]. وصالح الرسول صلى الله عليه وسلم أهل نجران واليمن (السيد والعاقب) على ألفى حلة تدفع في شهر صفر وألف حلة تدفع في شهر رجب، عن كل حلة أوقية وزن أربعين درهما[٢٤]، واخذ من هجر ومجوس اليمن عن كل حالم من رجل وامرأة ديناراً واحداً في السنة[٢٥].

وكان عامل الرسول صلى الله عليه وسلم على البحرين العلاء الحضرمي الذي صالح الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يكفوا المسلمين العمل لانشغالهم بنشر الإسلام، على أن يقاسموهم الثمر، وفرضت الجزية على كل حالم من امرأة أو رجل ديناراً واحداً في السنة[٢٦] وبلغت الأموال التي أتت المدينة من البحرين كثيرة جداً حتى قيل أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما وصل المال إليه من البحرين قال: نثروه في المسجد، وذكر انه اكثر مال أتى المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما قضى الرسول صلى الله عليه وسلم الصلاة جاء وجلس إليه، فما مر به أحد إلا أعطاه منه، وقد قصد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا العطاء الكريم للمسلمين في المدينة مهاجرين كانوا أو أنصارا تعويضهم لقاء ما عانوه من ضيق وشدة في السنين الأولى للهجرة.

ويبدو أن موارد الدولة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لا سيما بعد فتح مكة قد تنوعت وازدادت على نحو أدي إلى ارتفاع كبير في وارداتها

---

(٢٣) البلاذري، المصدر السابق، ١ / ٧١ _ ٧٣.

(٢٤) البلاذري، المصدر نفسه، ١ /٧٦.

(٢٥) البلاذري، المصدر السابق، ١ / ٨٦.

(٢٦) انظر البلاذري، المصدر نفسه، ١ / ٩٥.

الاقتصادية مما انعكس بدوره في ارتفاع كبير في المستوى المعاشي لسكان المدينة وتحسن أوضاعهم المعاشية والحياتية[٢٧] وقد دفع توفر الأموال في أيدي المسلمين إلى استثمارها في التجارة وخصوصاً المهاجرين لأنهم كانوا تجاراً فقد ذكر ابن سعد أن حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد عبد العزى بن قصي، كان تاجراً يبيع الطعام، فلما مات سنة ثلاثين للهجرة ترك لأهله وعياله أربعة آلاف دينار، ودرهماً، وداراً وما شابه ذلك[٢٨].ودفعت كثرة الأموال التي أصبحت بحوزة المسلمين إلى التفاخر بها، مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم ينهى عن التبقر في الأهل والمال[٢٩].

كما راح المسلمون يعملون على امتلاك الأراضي الزراعية للاستفادة من خيراتها أو للعمل فيها، حتى قيل أن زيداً بن سهل الأسود كان اكثر الأنصار مالا في المدينة وكانت جل أمواله من نخل وما شابه، وكان يمتلك بئر ماء قبالة لمسجد النبوي، وتصدق بها على أقربائه فيما بعد[٣٠]، ودفع هذا الثراء أعدادا من المسلمين إلى إنفاق أموالهم في سبيل الله فهذا قيس بن سلع الأنصاري، شكاه لخوته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ينفق أمواله بغير حق، فأرسل إليه لرسول صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك فرد على الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا إني والله يا رسول الله اخذ نصيبي من التمر فانفقه في سبيل الله وعلى من صحبني، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم انفق قيس ينفق الله عليك[٣١].

---

(٢٧) انظر ابن حجر، المصدر السابق، ٣ / ٦٦٥.

(٢٨) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، د / ط، بيروت، ١٩٦٨، ٣ / ١١٤ ـ ١١٥.

(٢٩) التبقر: هو الكثرة والجمع للنساء والأموال وغيرهما انظر ابن حجر، المصدر السابق، ٤ / ٤.

(٣٠) ابن حجر، المصدر نفسه، ١ / ٥٦٧.

(٣١) انظر حول ذلك.ابن حجر، المصدر نفسه، ٣ / ٢٥٠ ـ ٢٥١.

وكانت الثروة الحيوانية من جملة الأموال التي يعمل المسلمون على امتلاكها كثروة لهم ينموها ويحافظون عليها فضلا عن أن لها أهميتها الخاصة، بما تنتجه من ألبان ولحوم وجلود وغير ذلك مما له قيمة في التعامل الاقتصادي، وتبعاً لذلك عدت الحيوانات من الإبل والغنم من مصادر الثروة لأهل المدينة على نحو اكبر مما كانت عليه قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها[٣٢]. وكان للرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة عشرون لقحة ترعى بالغابة، وهي تعيش بها أهل بيته، إذ يراح إليه بكل ليلة بقربتين عظيمتين من لبن[٣٣]. وكان له أيضا متاع من الغنم سبع ترعاهن له أم ايمن مولاته، وبلغ ما يمتلكه بعض المسلمين من أهل المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من الغنم ما بين الخمسمائة إلى الألف[٣٤] أو اكثر من ذلك بكثير[٣٥].

غير أن مظاهر الغنى والثراء في المدينة لا تعني أبدا أن جميع المسلمين، اصبحوا في حالة معاشية جيدة جداً. فالأحوال المعاشية وامتلاك الأموال تفاوتت بين مسلم وآخر، على الرغم من أن التمايز ما بين المسلمين كان قليلا داخل مجتمع المدينة، وان نسبة الفقراء بين المسلمين كانت محدودة بسبب التكافل الاجتماعي الذي اقره التشريع ما بين فقراء المسلمين وأغنيائهم داخل المجتمع الإسلامي أينما وجد.

على الرغم من حالة الانتعاش الاقتصادي التي وصلت إليها المدينة

---

(٣٢) النعيمي، رياض، النشاط الزراعي، ١٧ _ ١٨.

(٣٣) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٤٩٤، واللقحة هي الناقة الحلوب الغزيرة اللبن والجمع لقاح (انظر مصطفى، ابراهيم، المعجم الوسيط، د / ط، القاهرة، د / ت، ٢ / ١٤٠.

(٣٤) انظر ابن حجر، المصدر السابق، ٢ / ١٦.

(٣٥) انظر ابن حجر، المصدر نفسه، ٢ / ٥.

وارتفاع مستوى المعيشة لدى المسلمين، وامتلاك الدور والأراضي الزراعية والأموال والمواشي، فان هناك فئة في داخل هذا المجتمع بقيت فقيرة جداً، وهم من يطلق عليهم أهل الصفة[٣٦]. وكان هؤلاء قد اتخذوا لهم ظلة في مؤخرة المسجد النبوي في جهة الشمال، فكانوا يأوون إليها، عرفت فيما بعد باسمهم، وكان بناؤها خارج المسجد غير أنها ملتصقة به [٣٧]، وكان بناء هذه الظلة قد أنجز مع بناء المسجد وفي قبلته[٣٨].

كان الغرض من بنائها على ما يبدو إيواء الفقراء من الصحابة وتامين سكن لهم[٣٩]. لا سيما في الفترة الأولى من عهد دولة المدينة إذ كانت الظروف المادية صعبة جداً، يقول ابن النجار في حديث لأبي هريرة عن أموال أهل الصفة ((لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء، أما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم ، فمنها ما يبلغ الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته[٤٠]. وقيل عنهم كذلك انهم أهل الحاجة[٤١]. ويقول أبو هريرة رضي الله عنه عن نفسه كنت من أهل الصفة في حياة الرسول

---

(٣٦) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٢٥٥.

(٣٧) السمهودي، نور الدين علي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محي الدين، د / ط، القاهرة، ١٩٥٥، ٢ / ٤٥٤.

(٣٨) ابن فضل الله، العمري، مسالك الابصار في ممالك الأمصار ، تحقيق: احمد زكي باشا، د / ط، القاهرة، ١٩٢٤، ١ / ١٢٤.

(٣٩) ابن النجار، أبو عبدالله محمد بن محمود بن الحسن البغدادي، الدرة الثمينة في أخبار المدينة، تحقيق: صالح محمد، ط١، مكة، ١٩٦٦، ٧١.

(٤٠) ابن النجار، المكان نفسه.

(٤١) ابن حجر، المصدر السابق، ٢ / ٢٣٥ ـ ٢٦٤.

صلى الله عليه وسلم وان كان ليغشى عليّ، فيما بين بيت عائشة وأم سلمة من الجوع[٤٢].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطي لأهل الصفة مما أفاء الله عليه من الغنائم والأموال التي ترد إليه كما حث الصحابة على تقديم العون لهم حتى لا يشعروا بالفقر والحرمان، غير انهم بقوا لا منازل لهم تأويهم، فكانت الظلة بمثابة مأوى للنوم والمعيشة وتدارس القران[٤٣]، فكانوا بمثابة ضيوف الإسلام إذ لا مأوى ولا مال لديهم ولا يوجد في المدينة أحد من أقربائهم، وكانوا يزيدون بمرور الأيام كما كانوا يجاهدون مع الرسول صلى الله عليه وسلم ويشاركونه في غزواته وسراياه حالهم حال إخوانهم المسلمين في المدينة.

وبمرور الأيام تطورت الظلة فلم تعد كما كانت في بداية أمرها مكاناً لإيواء الفقراء من المسلمين وإطعامهم فحسب، بل أصبحت بعد فتح مكة مقراً لاستقبال من لا أهل له ولا ولد في المدينة من المسلمين الجدد، إلى أن يتدبروا أمره ويجد له مسكناً ومصدر رزق يعيش منه، وهكذا أصبحت هذه الظلة أشبه ما تكون بدار ضيافة للمسلمين، حتى عرفت بعد ذلك بصفة المهاجرين[٤٤].

وكان عموم أهل الصفة يقومون على خدمة المسجد النبوي وما يتطلبه ذلك من تنظيف وجلب لماء الوضوء. ومنع الحيوانات السائبة من دخوله، كما كانوا يقومون بقضاء حوائج إخوانهم المسلمين وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجالسهم ويؤانسهم ويتدارس معهم القرآن[٤٥]، وكل ما يتعلق بأمور العقيدة

---

(٤٢) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٢٥٦.

(٤٣) حول ذلك انظر ابن النجار، المصدر السابق، ٧١ ـ ٧٤.

(٤٤) السمهودي، المصدر السابق، ٢ / ٤٥٥، ابن حجر، المصدر السابق، ١ / ٣٦.

(٤٥) السمهودي، المصدر السابق، ٢ / ٤٥٤.

والدين، وكانوا يشاركون الرسول صلى الله عليه وسلم طعامه وشرابه، عندما يدعوهم إلى ذلك ولو في منتصف الليل[٤٦]. حتى اصبحوا بسبب ملازمتهم لطويلة للرسول صلى الله عليه وسلم وباستمرار من افضل صحابته حفظاً للقرآن وتفسيره[٤٧] وإطلاعاً مباشراً على حياته وحفظاً لأحاديثه وافعاله[٤٨].

وأما فيما يتعلق بعددهم فكانوا غالباً يربون على مائة رجل أو يقلون، فكانوا يقلون أو يكثرون بحسب تغير ظروفهم، فبعضهم يتزوج وينتقل إلى دار غير الظلة ومنهم من يسافر ويعود إلى أهله[٤٩]، ومنهم من يستشهد في سبيل الله أو يتوفى وهكذا، فأعدادهم غير ثابتة، وهم في الغالب ينتمون إلى عدة قبائل عربية منتشرة في عموم الجزيرة. كما كان من بينهم الموالي[٥٠].وكان العديد من لصحابة الأنصار يقومون على إطعام أهل الصفة وكان على رأسهم سعد بن عبادة سيد الخزرج، إذ كأن يطعم كل ليلة ثمانين منهم[٥١]، اسهم غيره من لصحابة في ذلك أيضا فكان إذا أمسى انطلق إليهم واخذ واحداً أو اثنين أو ثلاثة أو اكثر للعشاء عنده [٥٢]، واستمروا على ذلك حتى أغناهم الله من فضله.

في السنة التاسعة للهجرة وعندما اتسعت رقعة دولة المدينة بانضمام العديد

---

(٤٦) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ابن النجار، المصدر السابق، ٧١- ٧٢.

(٤٧) ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن الكرم، أسد الغابة في معرفة الصحابة، د / ط، القاهرة، ١٢٨٠، ١ / ٧٣ ـ ٧٤.

(٤٨) ابن حجر، المصدر السابق، ٤ / ٢٠٦.

(٤٩) عن اسمائهم انظر ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٢٥٦، السخاوي، ابو الخير شمس الدين، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، د / ط، القاهرة، ١٩٥٧، ١ / ٣٣٥ ـ ٣٧١، ٣٨١، ٣٨٦.

(٥٠) ابن سعد، المكان نفسه ـ السخاوي، المكان نفسه.

(٥١) ابن حجر، المصدر السابق، ٢ / ٣٠، ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٢٥٥.

(٥٢) ابن حجر، المكان نفسه، ابن سعد، المكان نفسه.

من القبائل العربية إلى سلطتها، ولكي تعبر هذه القبائل عن ولائها للدولة أرسلت وفوداً عنها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، إما لإعلان الدخول في الإسلام أو لإعلان الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم ودولته، فكان تتابع هذه الوفود على المدينة قد استلزم التفكير في إيجاد مكان واسع يكون بديلاً عن الصفة لاستقبال زعماء القبائل العربية وشيوخها، وما يتطلب ذلك من إيواء ورعاية واستضافة كاملة لهم. وكان لشدة الزخم الذي حدث في المدينة حينذاك أن توجه محمد بن مسلمة الأنصاري إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله ((إلا تفرق هذه الأضياف في دور الأنصار ونجعل لك في كل حائط قنواً ليكون لمن يأتيك من هؤلاء الأقوام؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم له بلى))[٥٣].وعليه فقد تم تخصيص أماكن في بساتين الأنصار لإيواء من وفد إلى المدينة على الرسول صلى الله عليه وسلم والقيام بمستلزمات الضيافة اللائقة بهم حتى عرفت هذه الأماكن في المدينة بمنازل الوفود[٥٤]. وفكرة الإيواء هذه لم تكن طارئة على أهل المدينة، فهم الذين قاموا بإيواء المهاجرين من قريش بدورهم عندما وصلوا إلى المدينة. إذ نزل العزاب من المهاجرين دار سعد بن خيثمة بقباء[٥٥]. ونزل عموم المهاجرين على كلثوم بن الهدم[٥٦] وعلى رفاعة بن عبد المنذر[٥٧].

وهكذا توزعت منازل الوفود على عموم دور الأنصار في المدينة ومن

---

(٥٣) ابن النجار، المصدر السابق، ٧٢ _ ٧٤.

(٥٤) انظر ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٢٣٢.

(٥٥) ابن حجر، المصدر السابق، ٣ / ٣٠٥.

(٥٦) انظر ابن سعد، المصدر السابق، ٣ / ٤٠٤، ٤٠٧ _ ٤١٨.

(٥٧) ابن سعد، المصدر نفسه، ١ / ٢١٦، ٢٩٩، ٣٠٢ _ ٣١٥ _ ٣٢٤، ابن حجر، المصدر السابق، ٤ / ٣٠٥.

اشهر تلك المنازل منزل رملة بنت الحارث، وجاءت أهميتها بسبب تكرارها في المصادر التاريخية عندما يتم الحديث عن نزول الوفود في المدينة لمبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وجاءت شهرتها دون غيرها من دور الأنصار، لأنها كانت على ما يبدو واسعة جداً وفيها نخل كثير[٥٨]، وقيل عن اتساعها أن الرسول صلى الله عليه وسلم حبس فيها بني قريضة عندما نزلوا من حصونهم فهم يزيدون على الثمانمائة فرد[٥٩]. وكانت هناك منازل غيرها إلا أنها اصغر منها فقد ذكر ابن سعد أن سبعة نفر من قبيلة خشين، قدموا المدينة بعد خيبر فنزلوا على بني ثعلبة الخشني، وعندما قدم وفد بهراء من اليمن فيهم ثلاثة عشر نفر اقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا إلى باب المقداد فرحب بهم أنزلهم في منزل من الدار[٦٠].

شيوع استخدام الموالي والعبيد في المدينة في عصر الرسالة

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الاعتماد في حياتهم اليومية على الخدم والموالي لقضاء أعمالهم غير أن استخدام الموالي والعبيد في يثرب لم يكن وليد دخول الإسلام في المدينة بل إن أهل يثرب كانوا يعتمدون على الخدم والموالي منذ القدم، بحكم اعتماد حياتهم الاقتصادية على الزراعة، ولما كانت الأعمال الزراعية عديدة وتعتمد على

---

(٥٨) انظر الخزاعي، ابو الحسن علي بن ذا الوزارتين، تخريج لدلالات (مخطوط مصور / جامعة لدول العربية) برقم ١٨٥٣ / و / ١٩٣.

(٥٩) ابن حجر والمصدر السابق، ٤ / ٣٠٥.

(٦٠) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٣٣١.

العديد من العمال، ويتوجب الإشراف عليها من صاحب المزرعة، فان تواجد العمال في المزارع والخدم في البيوت اصبح أمرا ضروريا لأهل يثرب، وهكذا انتشر في مدينة يثرب العمال والأجراء من الموالي والعبيد فكانت بيوت الاوس والخزرج قبل الإسلام لا تخلو منهم ألبته[٦١]. ولما دخل الإسلام مدينة يثرب وانتشر في ربوعها، وتحولت مهام الرجال من الأعمال الاقتصادية بالدرجة الأولى إلى الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام والدفاع عن دعوته، اصبح للعبيد والموالي أهمية كبيرة في مجتمع المدينة، حتى تساوى تواجدهم أحيانا بالدور الذي تقوم به الخيل في جهاد العدو[٦٢]. حتى روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ليس على المسلم في عبده ولا في فرسه صدقة[٦٣].

وكان لازدهار حياة المسلمين الاقتصادية في المدينة آنذاك شيوع استخدام العبيد والموالي في العمل في الحوانيت والمزارع والبيوت، مما دفع ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تحديد طبيعة العلاقة ما بين الخادم وسيده، وبلغ من حرصه عليه الصلاة والسلام على حفظ حقوقهم، إن كان من حق ولي الأمر، أن يعتق أي عبد اشتكى من ظلم مولاه[٦٤]. يحدثنا عن ذلك ابن حجر بقوله: ((إن أحد بني مزينة قال: كنا بني مقرن لنا غلام، فلطمه بعضنا، فأتى النبي صلى الله

---

(٦١) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٤٩٧، ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، د / ط، بيروت، ١٩٧٦. ١٩٧٦، ٢ / ٢٥٣.

(٦٢) مالك، الموطأ، ١ / ٢٧٧.

(٦٣) مالك، المكان نفسه.

(٦٤) انظر عن ذلك ابن حجر، المصدر السابق، ١ / ٥٥١.

عليه وسلم فشكا إليه فاعتقه، فقيل يا رسول الله انه ليس فيهم خادم غيره، فقال: فليخدم حتى يستغيثوا))[٦٥].

ولم تكن مهام الموالي والعبيد والخدم للعمل في المزارع أو البيوت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بل لقد تعددت وتشعبت، فمنهم من كان يقوم على تجارة سيده ويكون مسؤولاً عن أمواله ورعايتها له، ذكر ابن حجر: إن سعد بن عبادة كان إذا غزا أعطى مفاتيح خزانته لمولاه نسطاس، موليه ثقته، يتصرف بأمواله كيفما يشاء[٦٦]، وبلغ من حق العبد أن يتصدق شيء من مال سيده، ذكر أن عمير مولى أبي اللحم قال: كنت مملوكاً فسألت النبي صلى الله عليه وسلم: أتصدق من مال مولاي شيء، قال: نعم والأجر بينكما[٦٧] وفضلا عن هذه الأعمال كان قسم منهم يرعى نِعَم سيده[٦٨]، ناهيك عن مهام أخرى[٦٩].

ويبدوا أن أعمال الخدمة في المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن مقصورة عل الموالي والعبيد، فكان من الصحابة من يقوم على خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم ليسوا بمماليك أو موالي أو عبيد بل من أحرار الصحابة نساءً ورجالاً ومن أولئك هند واسماء ابنتا حارثة الاسلمي الأنصاري، وقيل عنهما كان يخدمان الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يريمان بابه حتى ظن بهم الناس انهما مملوكان لرسول صلى الله عليه وسلم[٧٠]. وكذلك

---

(٦٥) ابن حجر، المصدر نفسه، ٢ / ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

(٦٦) ابن حجر، المصدر نفسه، ٣ / ٥٥٣.

(٦٧) ابن حجر، المصدر نفسه، ٣ / ٣٨ ـ ٤٠.

(٦٨) ابن حجر، المصدر نفسه، ٣ / ٦٤٨.

(٦٩) حول مهام عديدة لهم قاموا بها، انظر ابن حجر، المصدر نفسه، ١ / ١٣.

(٧٠) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٤٩٧.

كان انس بن مالك الأنصاري[٧١]، وكان خالد بن سيار الغفاري، سائق بدن الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه حسان الاسلمي[٧٢] وعياض بن عمرو الاسلمي[٧٣]. أما الهيثم بن نصر الاسلمي[٧٤]، فقد كان يأتي بالماء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأهله من بئر أبي الهيثم بن التيهان[٧٥]. وعبدالله بن مسعود الهزلي كان صاحب نعليه[٧٦]. وكان للرسول صلى الله عليه وسلم عدد من العبيد غير انه اعتقهم فظلوا في خدمته طواعية[٧٧]. منهم يسار الراعي، الذي اعتقه الرسول صلى الله عليه وسلم لحسن إسلامه وصلاته، فكان يرسله في لقاح له بالحرة[٧٨].

وكان استخدام السيد لمولاه بوصفه حرفياً يعمل بيده أو بأجرة معلومة أو بنسبة معينة يدفعها إليه أمرا شائعاً في المجتمع المدني لذلك ظهر العديد منهم بوصفهم حجامين أو قصابين أو نجارين أو حدادين[٧٩] وهذا يدل على شيوع استخدام السادة لمواليهم بصفتهم أجراء وحرفين[٨٠].

---

(٧١) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٤٩٧.

(٧٢) ابن حجر، المصدر السابق، ١ / ٤٠٧.

(٧٣) ابن حجر، المصدر نفسه، ٣ / ٤٦ _ ٤٧.

(٧٤) ابن حجر، المصدر نفسه، ٣ / ٦١٥.

(٧٥) ابن حجر، المكان نفسه.

(٧٦) ابن حجر، المصدر نفسه، ٢ / ٣٦٨ _ ٣٦٩.

(٧٧) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٤٩٧ _ ٤٩٨.

(٧٨) ابن حجر، المصدر السابق، ٣ / ٦٦٦ _ ٦٦٧.

(٧٩) انظر حول ذلك مالك، المصدر السابق، ٥ / ٩٧٤، وكذلك البخاري، أبو عبدالله محمد، الصحيح، تحقيق، محمود النواوي د / ط، القاهرة ١٣٧٦، ٣ / ٥١، ٥٢، ٥٤.

(٨٠) ابن حجر، المصدر السابق، ٤ / ٣٧٤.

وكان أبو طيبة حجام الرسول صلى الله عليه وسلم، كان يأمر له في كل مرة بصاع من تمر[٨١] وأمر سيده أن يخفف عنه من خراجه[٨٢]. وشاع امتلاك العبيد في المدينة حتى قيل أن الزبير بن العوام كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج[٨٣]. وكان العبيد يعدون جزءاً من الأموال التي يمتلكها الرجل، يحدثنا مالك أن صحابياً توفي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكان قد اعتق ستة عبيد له فأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم، فأعتق ثلث تلك العبيد ولم يكن لذلك الرجل مال غيرهم[٨٤]. مما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد إلا ينقطع مورد رزق من كان يعيلهم هذا الصحابي من ورثته حين يعتق كل عبيده[٨٥].

أن ما سبق عرضه لا يعني أن الموالي والعبيد في المدينة لم يكن من حقهم العمل لصالحهم في مجالات الحياة الأخرى كافة، يقول ابن حجر: ((إن سعد بن عائذ مولى عمار بن ياسر، اشتكى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قلة ذات يده فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالتجارة، فخرج إلى السوق فاشترى شيئاً من القرض فباعه فربح فيه[٨٦])).

ومراعاة لتقاليد الشريعة الإسلامية، والتي لا تبيح البته الاختلاط بين النساء والرجال، إلا إذا أمنت الفتنة، كان لابد من استخدام الخدم من المخصيين

---

(٨١) مالك، المصدر السابق، ٢ / ٩٧٤.

(٨٢) مالك، المكان نفسه.

(٨٣) انظر ابن حجر، المصدر السابق، ١ / ٥٤٦.

(٨٤) مالك، المصدر السابق، ٢ / ٧٧٤.

(٨٥) مالك، المكان نفسه.

(٨٦) ابن حجر، المصدر السابق، ٢ / ٢٩.

والمجبوبين وأحيانا المخنثين خصوصاً للخدمة في البيوت[٨٧]. ومن اجل ذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعين عدداً من الصحابة ليحدوا بالرجال وكان انجشة الأسود، وهو من المخنثين يحدوا بالنساء[٨٨] فإذا أعننت الإبل قال الرسول صلى الله عليه وسلم يا انجشة رويدك سوقك بالقوارير[٨٩] مع انجشة مانع وهيت يقومان بالخدمة بين نساء الرسول صلى الله عليه وسلم[٩٠].

ولم تكن الخدمة في البيوت مقصورة على من سبق ذكرهم من الرجال بل استعين أيضا بالغلمان الصغار الذين لم يحتلموا بعد[٩١]. كما عملت النساء في بيوت المسلمين خادمات وهن في العادة من الجواري أو المملوكات[٩٢] وخدم منهن في بيوت الرسول صلى الله عليه وسلم مثل سلمى، جدة عبدالله بن علي بن أبي رافع، مولى الرسول صلى الله عليه وسلم وخصره، ورضوى وميمونة، اعتقهن جميعهن الرسول صلى الله عليه وسلم واستعان أهل المدينة بالجواري في رعي أغنامهم وابلهم حول المدينة[٩٣]، وكان لعدد من الصحابة الموسرين من أهل الغنى العديد من الجواري والغلمان للخدمة ولقضاء المصالح وما شابه ذلك[٩٤].

---

(٨٧) ادريس ، عبدالله، مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ط١، الرياض، ١٩٨٢، ١٩٨ _ ١٩٩.

(٨٨) ابن حجر، المصدر السابق ١ / ٦٧ _ ٦٨.

(٨٩) ابن حجر، المصدر نفسه.

(٩٠) ابن حجر، المصدر نفسه، ٢ / ٣٣٥ _ ٣٣٦.

(٩١) ابن حجر، المصدر نفسه، ٤ / ٢ _ ٤، ١ / ١٦٤.

(٩٢) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٤٩٧ _ ٤٩٨ _ ٥٠٠.

(٩٣) ابن حجر، المصدر نفسه.

(٩٤) مالك، المصدر السابق، ٢ / ٧٧٦ _ ٧٧٧.

وفي ختام هذه الدراسة المتواضعة نتمنى من الله تعالى أن نكون قد وفقنا في عرضها على نحو علمي مفيد، وعليه يمكننا القول هنا أن هناك عدداً من الاستنتاجات توصلت إليها هذه الدراسة:-

١. إن الأحوال المعاشية والاقتصادية والاجتماعية قد تطورت في المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم على نحو جيد جداً وجاء ذلك بسبب السياسة الحكيمة للرسول صلى الله عليه وسلم في قيادة الأمة والدولة.

٢. إن مستوى المعيشة قد نما وتطور في المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من حالات الفقر والتقشف إلى حالات الازدهار وعلى الرغم من حالات الازدهار التي عاشتها الدولة فان قسماً من أبناء الدولة من المسلمين بقوا في حياة فقيرة لكنها ليست بدرجة الفاقة.

٣. أصبحت دولة المدينة عاصمة الدولة العربية الإسلامية بسبب انتشار الإسلام في ربوع الجزيرة العربية وأصبحت المدينة لذلك مركز استقطاب دائم للتجار الذي وفدوا إليها بهدف التجارة.